النظرة التداولية للمخاطب عند سيبويه

م.د علي شاكر جواد

الملخص

فتحت اللسانيات التّداوليّة آفاقاً جديدة أمام الدرس اللساني المعاصر ، إذ قامت بتغيير خارطة المهام الإجرائية في مقاربة الخطابات اللغوية ، معيدة الاعتبارات الخارجيـة للغة التي أُقصيت على يدِّ اللّسانيات الشكليّة ، فجاءت التداولية ردا على القصور في النظريات اللغوية التي سبقتها كالبنيوية والتوليدية التحويلية وغير ذلك من مناهج اللغويين القدامى والمحدثين . وعُنيت اللسانيات التّداوليّة بالاستعمال عند دراستها للّغة ، وبأقطاب العملية التواصلية ، فاهتمّت بالمتكلّمِ ومقاصده بعدِّه مُحرِّكاً لعمليّة التخاطبِ ، ومراعاة حال المخاطب أثناء الخطاب ، كما تُعنى بالظروفِ والأحوال السياقيّة والاجتماعيّة المحيطة بالعملية التحاوريّة ؛ ضماناً لتحقيق التواصل من جهة ، ولتستغلّها في التوصّلِ إلى معنى الكلام من جهة ثانية .وقد أظهرت الدراسات المعاصرة من خلال العديد من المقاربات المعقودة أن (الكتاب) لم يغفل تلك المناهج أثناء عرضه لمادته اللغوية ، ومنها القضايا التي لها تعلق مباشر بما بشرت به التداولية الحديثة ، لذا سيكون مدار البحث متمركزا حول ركن أساسي من أركان العملية التواصلية ألا وهو المخاطب ، وكيف نظر سيبويه إلى المخاطب إثناء عرضه وتحليله لموضوعات الكتاب.

التمهيد

إن الاهتمام بالمخاطب يشكل ظاهرة ذات أهمية بالغة في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة ؛ ذلك كونه أحد أقطاب العملية التواصلية، فالاهتمام به لم يكن وليد اللحظة ، لكن الدراسات اللسانية الحديثة عند الغربيين أولته عناية خاصة؛ لأنه يمثل عنصرا مهما في اغلب النظريات اللغوية لديهم واهتمامهم به له جذور موغلة في القدم [١] .

وهذا لا يعني إنكار أو إلغاء ما للعرب من جهود علمية أبرزت عنايتهم بالمخاطب في دراساتهم اللغوية ، فقد وردت نصوص كثيرة في التراث اللغوي العربي تشير إلى العناية الفائقة عند علماء العربية بالمخاطَب، ويظهر ذلك جليا في تعريفهم للبلاغة أنها((كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن)) [٢] . ويؤكد ذلك الجاحظ بقوله((يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع)) [٣] مما يدل دلالة واضحة على مبدأ التعاون الذي نادى به التداوليون المحدثون[٤] .

وأكدوا على المخاطب كونه يمثل شرطا مهما من شروط تحقق الفصاحة وبلاغة الكلام من خلال مراعاة المتكلم لمقتضى الحال والمقام لأمن اللبس على المخاطب[٥].

ولم يكن اهتمام النحاة الأوائل بالمخاطَب في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الدرس اللساني العربي هامشيا على متن القواعد التي وضعوها ، بل ضرورة يقتضيها الدرس النحوي آن ذاك ، فلم تكن مفردات اللغة بمعزل عن واقعها اللغوي والوسط الذي تستعمل فيه والظروف المحيطة بها التي يُعدّ المخاطب من أهم أطرافها إذ بُنيت اغلب أحكام النحو على أساس مراعاته ، فجاءت هذه الأحكام متساوقة مع معرفة السامع[٦] ، فالكلام لن يكون

مفيدا ولا الخبر مؤيداً غرضه ما لم يكن حال المخاطَب ملحوظا؛ ليقع الكلام في نفس المخَاطب موقع الاكتفاء والقبول[٧].

وهذا ما أدركه سيبويه أثناء بناء سفره الخالد ، فللمخاطب عنده شأن ذو أهمية بالغة ، فهو العنصر السياقي الذي يجيز للمتكلم استعمال أساليب مختلفة في التعبير تتيح له ممارسة أعراف لغوية متعددة اعتمادا على فهم السامع أو المخاطب الذي ألف هذه الأساليب، لذا فهو لا يشكل عند سيبويه طرفا أساسيا في تكوين الخطاب فحسب ، بل له الأثر الأكبر في تحديد بنية عناصره اللغوية[٨] ، يدل على ذلك كثرة ورود مصطلح (المخاطَب) الدال على سياق الحال في الكتاب، مما يؤكد انه كان متمرسا في هذه الناحية ،عميق التأمل في حال المخاطب يتراءى أمامه في أوضاعه المختلفة يدقق في أحواله ويتخيلها في سعة خياله ،فيدرك اثر المخَاطب في المتكلم وحالته ومقامه وما يكتنف العملية اللغوية كلها[٩].

فالمعرفة بحال المخاطَب من القرائن المهمة التي تعين على فهم النص فهماً صحيحا وتبين حقيقة المقصود منه.فإذا أهملت ولم يلتفت إليها أدى ذلك إلى فهم كلام المتكلم فهما سقيما غير صحيح والوقوع في أخطاء كبيرة.فالمتكلم قد يختلف مقصوده من الكلام باختلاف المخاطب باعتبارات مختلفة تدخل في حال المخاطَب وتؤثر على دلالة النص وهذا ما سنحاول تلمسه عند سيبويه في بعض نصوص كتابه.

أحوال المخاطب عند سيبويه

إن القارئ لنصوص سيبويه التي تُظهِر عنايته بالمخاطَب في العملية التواصلية يجد أنها في اغلبها مبنية على مراعاة أحوال المخاطب المختلفة ، ووضع تلك الأحوال في الحسبان للانطلاق في بناء العملية التواصلية السليمة ، وكأنه يستحضر مبادئ تداولية حديثة[١٠] نادى بها التداوليون المحدثون لنجاح العملية التواصلية من خلال استحضار حال المخاطَب أثناء عملية الحوار وان لم يذكرها سيبويه صريحا ، وهي:

- من هو المتلقي ؟
- . ما هي مقصديتنا أثناء الكلام؟
- كيف نتكلم بشيء ، ونسعى لقول شيء آخر؟
- ماذا علينا أن نفعل حتى نتجنب الإبهام والغموض في عملية التواصل ؟ .
- هل المعنى الضمني كاف لتحديد المقصود ؟

لذا نجده يلجأ إلى الحوار مع المخاطب بغية توضيح المعلومات بشكل رصين يأمن اللبس على المخاطَب من خلال مراعاته الأحوال التي يتراءى له فيها المخاطَب، ذلك أن العملية الابلاغية ترتبط بالمخاطَب، أو الطرف المستمع،لا بوصفه طرفا منتجا أساسيا، بل لكونه معتبرا في العملية التواصلية ؛ لأن المتكلم ، لاينظر إلى الآخرين، بعدِّهم طرفا مستهلكا سلبيا، بل طرفا فاعلا، كما أن المتكلم إذ فعل ذلك فإنما يتكلم عبرهم ومن خلالهم، بغض النظر عن التكلم بوصفه عملية إصدار أصوات، بل بعدِّه إنتاجا للدلالة، التي وإن تخلقت في

بدايتها الأولى في حضن المتكلم؛ فإنه عليه أن يعتد، من جهة الفعل، بأن أقدامها تسيخ أكثر في تربة التحقق والعلن عن طريق السامع، لذلك تجب مراعاته، في ارتباطه بالقصد دائما.

لذا يمكن أن نتلمس بعض أحوال المخاطب[١١] التي راعاها سيبويه أثناء بناء نصوصه ومنها :

أولا – مراعاة علم المخاطب : وهو ما يطلق عليه التداوليون المحدثون اسم (الافتراض المسبق) وهي افتراضات معترف بها ومتفق عليها بين شركاء العملية التواصلية ، وتشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق نجاح العملية التواصلية ، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة[١٢] .

ولم يكن هذا الأمر غائبا عن نظر صاحب الكتاب من خلال علمه المسبق بحال المخاطب العارف بمضمون القول أثناء حديثه ، مما يتيح له خرق إحدى مبادئ التعاون الحواري ، مثل مبدأ الكم الذي يبنى عليه إنتاج عنصر الاستلزام الحواري[١٣] ،كما في حديثه عن الإضمار، في قوله: ((أُضمِر لعلم المخاطب بما يعني، وهو يوم))[١٤] ، ولعل هذا الموضع هو الأول الذي ذكرت فيه كلمة الإضمار[١٥] ، جاء ذلك تعليقا على قول الشاعر عمرو بن شأس :

بني أسدٍ هل تعلمون بلائنا إذا كان يوماً ذا كوكب أشنعا[١٦]

فنلاحظ أن سيبويه ذكر الإضمار في هذا الموضع وذكر سببه وعلته؛ أي علم المخاطَب من دون تفسير ولا تفصيل ،فقد ذكر الأمر المستقر المألوف، فالإضمار جاز لعلم المخاطب بما يعني .

والمواد التي يأتي منها علم المخاطب ليست واحدة ، فقد يأتي من كونه حاضرا في موقع الكلام فكل من المتكلم والمخاطب حاضر في الموقف الكلامي يرى ويسمع أطراف الحديث ، فالمشهد يوحي بالدلالة المقصودة ، فلا يحتاج المتكلم إلى ذكر تفصيلات ما يشاهد المخَاطَب ، وإنما يذكر له الحدث الأهم الذي ينبغي للمخاطَب أن يسمعه ويعيه[١٧] ، فيعتمد على القرائن المستمدة من الحواس أو الحركة الجسمية في بيان ما جرى من الإغراء مثلا على إضمار الفعل المستعمل إظهاره ، ويظهر ذلك جليا في نصوص ذكرها صاحب الكتاب يوحي من خلالها إلى استحضار علم المخاطب من قبل المتكلم أثناء بنائه لتلك التراكيب ، ومنها قوله : ((وذلك أنك رأيت رجلاً يضرب أو يشتم أو يقتل، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله فقلت: زيداً، أي أوقع عملك بزيدٍ. أو رأيت رجلاً يقول: أضرب شر الناس، فقلت: زيداً. أو رأيت رجلاً يحدث حديثاً فقطعه فقلت: حديثك. أو قدم رجل من سفر فقلت: حديثك. استغنيت عن الفعل بعلمه أنه مستخبرٌ، فعلى هذا يجوز هذا وما أشبهه)) [١٨]. فقد استغنى برؤيته للرجل الذي يضرب أو يشتم أو يقتل عن قول: (اضرب زيدا، أو اشتم زيدا،أو اقتل زيداً) لأنه اكتفى برؤيته لعمله وعِلْم المخاطَب بوقوف المتكلم على المشهد يراه ويسمعه ، فعَلِم المتكلم أن المخاطَب مستغن عن لفظ الفعل بدلالة هذه القرائن لعلمه بمقصد المتكلم [١٩].

وعلى هذا الأساس يعمد المتكلم إلى الاختصار والإيجاز ، فيذكر ما كان بالاهتمام أولى ويحذف سواه ،والمسوغ لهذا الحذف أن المخاطَب مشاهد أمامه يعرف ما يريد المتكلم إبلاغه إليه .

ويستغنى بعلم المخاطَب أيضا عن العناصر المستعمل إظهارها في غير ذلك فيقوم سياق الحال مقام العناصر اللغوية والكلام المحذوف كما نص صاحب الكتاب في:((باب الفاعلين والمفعولين اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك وهو قولك: ضربت وضربني زيد، وضربني وضربت

زيداً، تحمل الاسم على الفعل الذي يليه. فالعامل في اللفظ أحد الفعلين، وأما في المعنى فقد يعلم أن الأول قد وقع إلا أنه لا يعمل في اسم واحد نصب ورفع.

وإنما كان الذي يليه أولى لقرب جواره وأنه لا ينقض معنى، وأن المخاطب قد عرف أن الأول قد وقع بزيد، كما كان خشنت بصدره وصدر زيدٍ، وجه الكلام، حيث كان الجر في الأول وكانت الباء أقرب إلى الاسم من الفعل ولا تنقض معنىً، سووا بينهما في الجر كما يستويان في النصب. ومما يقوى تركه نحو هذا لعلم المخاطب، قوله عز وجل: " والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات " فلم يعمل الآخر فيما عمل فيه الأول استغناءً عنه ومثل ذلك: ونخلع ونترك من يفجرك. وجاء في الشعر من الاستغناء أشد من هذا، وذلك قول قيس بن الخطيم:

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راضٍ والرأي مختلف[٢٠] [٢١]

ففي هذا النص يستعمل سيبويه علم المخاطب علة لتفسير الاستغناء عن بعض الأشياء في الكلام لأنها معلومة لدى المخاطَب ، وكأنه استنبط قانون التناسب بين طاقة التصريح في الكلام وعلم السامع بمضمون الرسالة الدلالية الذي بموجبه تكون الطاقة الاختزالية ممكنة بقدر ما يكون المخاطب متمكنا على مضمونها الخبري[٢٢] .

ونجد سيبويه في الكتاب يستغنى بعلم المخاطَب أيضا عن الفعل المستعمل إظهاره في غير ذلك عندما يجعل المتكلم هو المتلقي أو السامع ، أو يجعل علم المتلقي بمستوى علم المتكلم ،يفقه السياق الذي قيل فيه الكلام ، ذلك على افتراض أن المخاطب مع المتكلم حاضر في الموقف الكلامي يرى ويسمع أطراف الحديث ((فالكل يعلم أن الخطاب يفترض وجود المخاطب وقرب المخاطب وانتباه المخاطب ...الخ ، وهي كلها شروط مكانية زمانية شخصية يجب أن تتوافر حتى يمكن للمواضعة المسطرية أن تعمل)) [٢٣]، وعلية يقوم سياق الحال مقام العناصر اللغوية والكلام المحذوف كما نص صاحب الكتاب في :((باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي وذلك قولك، إذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهة الحاج، قاصداً في هيئة الحاج، فقلت: مكة ورب الكعبة. حيث كنت أنه يريد مكة، كأنك قلت:يريد مكة والله. ويجوز أن تقول: مكة والله، على قولك: أراد مكة والله، كأنك أخبرت بهذه الصفة عنه أنه كان فيها أمس، فقلت: مكة والله، أي أراد مكة ... ومن ذلك قوله عز وجل: " بل ملة إبراهيم حنيفاً "[٢٤] ، أي بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً، كأنه قيل لهم: اتبعوا، حين قيل لهم: " كونوا هوداً أو نصارى "

أو رأيت رجلاً يسدد سهماً قبل القرطاس فقلت: القرطاس والله، أي يصيب القرطاس. وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت: القرطاس والله؛ أي أصاب القرطاس. ولو رأيت ناساً ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا لقلت: الهلال وربِّ الكعبة، أي أبصروا الهلال. أو رأيت ضرباً فقلت على وجه التفاؤل: عبد الله؛ أي يقع بعبد الله أو بعبد الله يكون))[٢٥].

فسيبويه يقدر الأفعال المحذوفة في هذا النص استنادا إلى الأحوال التي تراءت له من خلال المقامات التي يرصدها في كل موقف من المواقف التي وردت في النص ، والتي يعلمها المخاطب لوقوفه عليها مع المتكلم ،وفي الجدول أدناه نبين تمثيل لما تقدم :

القول الطبيعي	السياق المقامي التواصلي	وضعية المتكلم والمخاطَب	حاسة رصده	التقدير
مكة ورب الكعبة	شخص يلبس لبس المحرم	حاضران قريبان	الرؤية بالعين	يريد مكة والله
القرطاس والله	رجل يسدد صوب القرطاس	حاضران قريبان	الرؤية بالعين	يصيب القرطاس
	رجل أصاب بسهمه القرطاس	حاضران قريبان	السمع بالأُذن	أصاب القرطاس
الهلال ورب الكعبة	ناس ينظرون الهلال ويكبرون	حاضران بعيدان	الرؤية بالعين والسمع بالأذن	ابصروا الهلال
عبد الله	واقع عليه الضرب	حاضران غائبان	الرؤية بالعين	يقع بعبد الله

نلحظ من النصوص المتقدمة أن سيبويه في كتابه لا يتصرف في الأقوال أو الملفوظات إلاَّ داخل سياقاتها ومقاماتها التداولية التي نصَّ عليها ، إذ تترابط المكونات التي تشكل عملية التواصل بين أفراد المجتمع، وتكشف عن بنائية السلوك اللغوي، مما ساعد في فهم الملفوظات ، والإشارات التواصلية، والإيماءات المصاحبة التي تدل على علم المخاطب بمضمون القول .

ثانياً- مراعاة فهم المخاطب : وهو ما يطلق عليه التداوليون المحدثون (مسلمة الجهة) أو(مبدأ الطريقة) ، وهو أن يكون الكلام واضحا محددا موجزا مرتبا مجتنبا للغموض واللبس[٢٦] . يقول (هايمس): إن السياق يضطلع بدور مزدوج إذ ((يحصر مجال التأويلات الممكنة ... ويدعم التأويل المقصود))[٢٧] ، أي أن تأثير السياق متنوع جدا ويختلف من كلمة إلى أخرى ، ومن جملة إلى أخرى والمتكلم ينبغي أن يتنبه دائما إلى مراعاة فهم المخاطب ، ومراعاة سياق المقامات التي تدور فيها الملفوظات ، فإن خُرِق هذا المبدأ أو المسلمة ؛توجّب الاستلزام الحواري من خلال التعاون بين المتكلم والمخاطب في إنتاج حوار مثمر ، وهذا مبني على العلاقة بين المتكلم والمخاطب ، فعلى المتكلم أن يصوغ عباراته على وفق تلك العلاقة صوغا رصينا يبعد كل ما من شأنه تحقيق اللبس ، واختلاط الفهم ، من خلال الذهنية المشتركة بينه وبين المخاطَب ، والتي تتيح للمخاطب فهم قصد المتكلم من خلال قيامه بتقدير الالتزام ، أي ((إن المخاطب يقوم بخطوات محسوبة يتجه بها خطوة خطوة للوصول إلى ما يستلزمه الكلام)) [٢٨] .

ومما يشير إلى ذلك عند سيبويه قوله: ((لا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، وليس هذا بالذي ينزل به المخاطب منزلتك في المعرفة، فكرهوا أن يقربوا باب لبس وقد تقول: كان زيد الطويل منطلقاً، إذا خفت التباس الزيدين، وتقول: أسفيها كان زيد أم حليماً، وأرجلاً كان زيد أم صبياً، تجعلها لزيد، لأنه إنما ينبغي لك أن

تسأله عن خبر من هو معروف عنده كما حدثته عن خبر من هو معروف عندك فالمعروف هو المبدوء به.ولا يبدأ بما يكون فيه اللبس، وهو النكرة. ألا ترى أنك لو قلت: كان إنسان حليماً أو كان رجل منطلقاً، كنت تلبس، لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا إنسان هكذا، فكرهوا أن يبدءوا بما فيه اللبس ويجعلوا المعرفة خبراً لما يكون فيه هذا اللبس))[٢٩]. ففي هذا النص إشارة قوية لوجوب مراعاة فهم المخاطب لنجاح عملية التواصل، فيوجب إخبار المخاطب بالمعرفة؛ لأن المعرفة عنده تعني (الواقع الاجتماعي) ؛ أي حصول الفائدة عند المخاطَب سواء كان فردا أم مجتمعا ، ومبدأ حصول الفائدة دعامة تداولية تواصلية لم يغفلها التراث اللغوي العربي لتحقيق مبتغاه من الإفهام والتواصل[٣٠] ، ويؤكد سيبويه أيضا على ضرورة الابتداء بالأعرف لأن اللغة وسيلة إفصاح وبيان ، والابتداء بغير المعروف يلبس على فهم المخاطب لجهله بالمخبر عنه، وبالتالي لا تحصل الفائدة التي يبتغيها كل من طرفي الخطاب . يقول الجرجاني : ((وما كان من الكلام معقَّداً موضوعاً على التأويلات المتكلَّفة، فليس ذلك بكثرةٍ وزيادة في الإعراب، بل هو بأن يكون نَقْصاً له ونقضاً أولى، لأن الإعراب هو أن يُعرب المتكلم عما في نفسهِ ويبيّنه ويوضّح الغرض ويكشفَ اللَّبْسَ، والواضعُ كلامه على المجازفة في التقديم والتأخير زائلٌ عن الإعراب، زائغٌ عن الصواب، متعرّض للتلبيس والتعمية، فكيف يكون ذلك كثرةً في الإعراب؟ إنما هو كثرة عناءٍ على من رام أن يردَّه إلى الإعراب، لا كثرة الإعراب)) [٣١] .

لذا نجد سيبويه يخبر بالمواضع التي يجوز بها الإخبار بالنكرة ، شريطة تحقيق الفائدة بالابتعاد عما يلبس على فهم المخاطب ، أي جعل فهم المخاطب معيارا لما يحسن وما لا يحسن من الكلام ، وذلك في قوله: ((هذا باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة وذلك قولك: ما كان أحد مثلك، وما كان أحد خيراً منك، وما كان أحد مجترئاً عليك.وإنما حسن الإخبار ههنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، ولأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا. وإذا قلت كان رجل ذاهباً فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله. ولو قلت كان رجل من آل فلان فارساً حسن؛ لأنه قد يحتاج إلى أن تعلمه أن ذاك في آل فلان وقد يجهله. ولو قلت كان رجل في قوم عاقلاً لم يحسن؛ لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا عاقل وأن يكون من قوم. فعلى هذا النحو يحسن ويقبح)) [٣٢].

وهكذا نجد أن الوجوب والجواز والحسن والقبح عند سيبويه في النصوص السابقة مظهر لغوي تواصلي مرهون بفهم المخاطب واستحسانه إياه، فيكون الإخبار بالمنكور ممكن الاستعمال شرط أن تدل عليه قرينة لفظية أو قرينة حالية ، أما إذا أدى ذلك الإخبار إلى اللبس والغموض بالدلالة نظرا إلى الافتقار لما يدل عليه من السياق بشقيه فأنه يصبح مرفوضاً لعدم حصول الفائدة لدى المخاطب.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل مقصد سيبويه في الكتاب عندما صنف الجملة العربية دلاليا ذكره في قوله : ((منه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب)) [٣٣].((فالملاحظ أن سيبويه لما تحدث عن صنف (المحال)، لم ينعته بـ: مستقيم ، أو حسن ، كما فعل مع الأصناف الأخرى، مما يدل على عدم كفاية هذا الصنف التواصلية ومن ثم عدم الاعتداد به تداوليا في اللسانيات العربية))[٣٤] لعدم حصول شرط (الفائدة) لدى المخاطَب ، ونص على تفادي ما يعكر استيفاء هذا الشرط بقاعدة وضعها والتزم بها كإجراء تحليلي ، وهي قاعدة ((امن اللبس)) [٣٥].

أما ما أطلق عليه (مراعاة ظن المخاطب)[٣٦] فلا يخرج برأي الباحث كونه مراعاة لفهمه ؛لان الظن الذي يخالج نفس المخاطب ينتج عن الكلام غير الواضح وغير المحدد مما يؤدي لغموض ولبس يجعل المخاطب يبتعد أو يقترب عن القصد الحقيقي الذي يرومه المتكلم من الخطاب ،مما يفرض على المتكلم أن يأخذ بالحسبان هذه الحالة ويراعيها عند بناء النصوص اللغوية وطريقة صوغه والأسلوب الذي يعتمده في الخطاب كما أسلفنا ، فيوظف من أداوت اللغة ما من شأنه أن ينزه ذهن المخاطب من حالة الظن التي تساوره[٣٧] والتي قد تلبس عليه مقصد الخطاب .

وقد أشار سيبويه بوضوح إلى ما ذهب إليه الباحث أثناء حديثه عن الحكم بامتناع إضمار فعل الغائب في الإغراء ، والتحذير إذ قال : ((واعلم أنه لا يجوز أن تقول: زيد، وأنت تريد أن تقول: ليضرب زيد، أو ليضرب زيد إذا كان فاعلاً، ولا زيداً، وأنت تريد ليضرب عمرو زيداً. ولا يجوز: زيد عمراً، إذا كنت لا تخاطب زيداً، إذا أردت ليضرب زيدٌ عمراً وأنت تخاطبني، فإنما تريد أن أبلغه أنا عنك أنك قد أمرته أن يضرب عمراً، وزيد وعمرو غائبان، فلا يكون أن تضمر فعل الغائب. وكذلك لا يجوز زيداً، وأنت تريد أن أبلغه أنا عنك أن يضرب زيداً؛ لأنك إذا أضمرت فعل الغائب ظن السامع الشاهد إذا قلت: زيداً أنك تأمره هو بزيد، فكرهوا الالتباس هنا ككراهيتهم فيما لم يؤخذ من الفعل نحو قولك: عليك، أن يقولوا عليه زيداً، لئلا يشبه ما لم يؤخذ من أمثلة الفعل بالفعل. وكرهوا هذا في الالتباس وضعف حيث لم يخاطب المأمور، كما كره وضعف أن يشبه عليك ورويد بالفعل)) [٣٨].

فالباعث على ظن المخاطب هو اللبس المترتب على عدم وضوح المقصد،وعدم وضوح المقصد مترتب على عدم الوضوح والتحديد بالكلام ، نتيجة لعدم مراعاة فهم المخاطب من خلال توظيف الأدوات اللغوية التي تراعي رفع اللبس الذي أدى به إلى الظن.

ثالثا– مراعاة انتظار المخاطَب وتوقعه:

ويمكن إدخال هذا الحال تحت ما يطلق عليه التداوليون المحدثون (مسلم القدْر) ، أو (مبدأ الكم) الذي يقضي بجعل الإسهام بالحوار بالقدر المطلوب من الإخبار، دون الزيادة عليه أو النقص منه[٣٩] . فإن أحدث النقص أو الزيادة ، صار ثمة خرق لمبدأ الكم أو القدر في الاستلزام العرفي ، مما يترتب عليه خرق احد مبادئ التعاون الحواري[٤٠] ، فمن شروط نجاح عملية التخاطب عدم وجود نقص في متلازمات الخطاب المتوقعة من قبل السامع ينتظِر النطق بها من قبل المتكلم ؛ ذلك انه لابد من سد النقص المنتظرَ من المخاطب ،والذي يوجبه السياقَ وتلازم القول.

ويشير سيبويه إلى هذا التلازم في ((باب المسند والمسند إليه ، وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بداً. فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه. وهو قولك عبد الله أخوك، وهذا أخوك. ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدّ من الآخر في الابتداء. ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: كان عبد الله منطلقاً، وليت زيداً منطلق؛ لأن هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده)) [٤١] . فيؤكد سيبويه هذا التلازم الذي يجزم بترقب المخاطَب لأحد الطرفين (المسند أو المسند إليه) إذا

تأخر ، ليس لكونها قضية لغوية بحتة تتطلب هذا التلازم ، بقدر ما هي قضية دلالية تواصلية يؤدي النقص فيها إلى عدم إنجاح عملية التواصل بين طرفي الخطاب .

ومما يدفع المتكلم إلى مراعاة حال الانتظار لدى المخاطب ، المؤشرات النفسية والجسمية أو المنطقية التي تشير إلى شغف المخاطب ولهفه لسماع حدث معين متوقع ، فتنتقل تلك الإشارات إلى المتكلم ليصوغ كلامه على وفق تلك الحالة.((فيركن إلى أسلوب دون آخر مراعيا الحال التي عليها المخاطب ليرضي فضوله ويشبع رغبته في سماع ما يبحث عنه. فالحال التي يكون عليها المخاطب كانت مدعاة لتوجيه الكلام وصوغه ... في ضوء ما تقتضيه تلك الحال)) [٤٢] . يقول المُبرِّد في باب الابتداء عن فائدة الخبر ((فالابتداء نحو قولك :زيدٌ ، فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع ؛ ليتوقع ما تُخبرُه به عنه، فإذا قلت(منطلق) أو ما أشبهه صحَّ معنى الكلام ، وكانت الفائدة للسامع في الخَبر؛ لأنه قد كان يعرف زيداً كما تعرفه ، ولولا ذلك لم تقل له زيد، ولكنت قائلا : رجل يقال له زيد، فلما كان يعرف زيد ، ويجهل ما تخبره به عنه أفدته الخبر، فصح الكلام ؛لان اللفظة الواحدة من الاسم والفعل، لا تفيد شيئا ، وإذا قرنتها بما يصح حدث المعنى واستغنى الكلام))[٤٣].

وقد سبقه شيخ العربية في هذا المجال – أي في صياغة الكلام وقوعا عند حال المخاطَب المنتظِر سماع ما يتوقع – في ما نقله عن شيخه الخليل في كلامه عن ضمير الفصل في باب الأفعال الناقصة ، إذ قال ((اعلم أنهن لا يكنّ فصلاً إلا في الفعل، ولا يكنّ كذلك إلا في كل فعل الاسم بعده بمنزلته في حال الابتداء، واحتياجه إلى ما بعده كاحتياجه إليه في الابتداء. فجاز هذا في هذه الأفعال التي الأسماء بعدها بمنزلتها في الابتداء، إعلاماً بأنه قد فصل الاسم، وأنه فيما ينتظر المحدَّث ويتوقعه منه، مما لابد له من أن يذكره للمحدَّث؛ لأنك إذا ابتدأت الاسم فإنما تبتدئه لما بعده، فإذا ابتدأت فقد وجب عليك مذكور بعد المبتدأ لابد منه، وإلا فسد الكلام ولم يسغ لك، فكأنه ذكر هو ليستدلّ المحدَّث أن ما بعد الاسم ما يُخرجه مما وجب عليه، وأن ما بعد الاسم ليس منه)) [٤٤] . في إشارة واضحة إلى اهتمام المتكلم في توجهه وصوغه للكلام بما يقتضيه حال المخاطب المنتظر لما يتوقع النطق به من ذلك المتكلم.

من النصوص التي تشير عنده إلى بيان العلاقة بين المتكلم والمخاطب ، وما ينتظره المخاطب من المتكلم ، ما أورده في مسألة اشتراط تعريف المبتدأ مع اسم كان ، إذ يقول : ((فإذا قلت: كان زيد فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك فإنما ينتظر الخبر. فإذا قلت: حليماً فقد أعلمته مثل ما علمت. فإذا قلت كان حليماً فإنما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة)) [٤٥] .إي أن المتكلم إذا قال(كان زيد) فلا بد أن يأتي بخبرها ؛ لان المخاطب ينتظر ذلك الخبر المتوقع عنده ، وإذا قال (كان حليما) فلابد من ذكر صاحب الصفة لانتظار المخاطب وتوقعه إياه، كي يستقيم الكلام عنده ،ويكون الخطاب قد حقق الفائدة التي تشترط في العملية التواصلية .

رابعاً– مراعاة تنبيه المخاطَب

يولي سيبويه المخاطَب أهمية بالغة كونه الطرف الذي تظهر من خلاله نتائج العملية التواصلية ويظهر من خلاله تقييم هذه العملية ونسبة نجاحها ، لذا يلجأ سيبويه في كتابه إلى الحوار مع المخاطب بغية توضيح المعلومة بشكل رصين فيعمد إلى أساليب مختلفة مراعاة لشد فهم المخاطب وإثارة انتباهه لقصده، ففي الكتاب

عندما يجعل سيبويه نفسه في موضع المتكلم والقارئ في موضع المخاطب ، فغالبا ما نجده يبتدأ بعبارة (اعلم) ليثير انتباه المتلقي نحو قوله مثلا : ((اعلم أن المفعول الذي لا يتعداه فعله إلى مفعول، يتعدى إلى كل شيء تعدى إليه فعل الفاعل الذي لا يتعداه فعله إلى مفعول، وذلك قولك: ضرب زيد الضرب الشديد... واعلم أن المفعول الذي لم يتعد إليه فعل فاعل في التعدي والاقتصار بمنزلة إذا تعدى إليه فعل الفاعل ...)) [٤٦] .

وقد يبدو انه عندما يبدأ بعبارة (اعلم) لا يريد شد انتباه المتلقي فحسب، وإنما يريد منه التمعن جيدا في ما يقول، فمثلا في الأفعال المضارعة نجده يضع علة لرفعها إذ يقول: ((اعلم أنّها إذا كانت في موضع اسم مبتدأ أو موضع اسم بني على مبتدأ أو في موضع اسم مرفوع غير مبتدأ ولا مبنيّ على مبتدأ، أو في موضع اسم مجرور أو منصوب، فإنّها مرتفعة، وكينونتها في هذه المواضع ألزمتها الرفع، وهي سبب دخول الرفع فيها وعلّته ...)) [٤٧] . نلحظ في هذا النص أن سيبويه يريد من المخاطب أن يتأمل ، فيكتشف أن الفعل المضارع سواء كان مرفوعا ، أو منصوبا ،أو مجزوما مبني على الابتداء ، وان هناك بنية عميقة وهي الابتداء ؛ إذ إن جملة المبتدأ والخبر هي الجملة المكونة للكلام ، ومنها تتفرع باقي العناصر[٤٨] .

ثم إن سيبويه في محاورته مع المخاطَب يهدف إلى استدراج مخاطَبه إلى ما يعتقده من حكم أو قول يراه الأقوى وفي الوقت نفسه لا يخرج عن رأي الجمهور ، فلا يُخطّأ ولكن يشد انتباه السامع وذهنه إلى ما يراه أكثر مقبولية ، فلا يجد بدا من مجاراة الجمهور حتى لا يتهم بالشذوذ ومخالفة نحويي العرب[٤٩] .

ويعدُّ المحدثون هذا النوع من المحاورة بما يعرف عندهم بمبدأ التعاون ، إذ يحاول المتكلم أن يخلق لدى المخاطَب شيئا من الخلفية المعرفية التي توصله إلى المقصود[٥٠]، فمثلا نجده يتحدث في باب كان عن التقديم والتأخير بين معموليها بقوله: ((تقول: كان عبد الله أخاك، فإنما أردت أن تخبر عن الأخوة، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى. وذكرت الأول كما ذكرت المفعول الأول في ظننت. وإن شئت قلت: كان أخاك عبد الله، فقدمت وأخرت كما فعلت ذلك في ضرب لأنه فعل مثله وحال التقديم والتأخير فيه كحاله في ضرب، إلا أن اسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد))[٥١]. فالتقديم والتأخير هنا مرتبط بالمتكلم فهو الذي يقوم بتحديد الدلالة عن طريق التقديم والتأخير لتنبيه المخاطب نحو غرض يبتغيه المتكلم كالعناية والاهتمام ، يقول سيبويه : ((كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم))[٥٢]. فالغرض منه كما يتبين تنبيه المخاطب، ويشير سيبويه إلى هذا الغرض – أي مراعاة انتباه المخاطب– صراحة في حديثه عن رفع الاسم المشغول قبل أدوات الاستفهام فيقول :((هذا باب من الاستفهام يكون الاسم فيه رفعاً لأنك تبتدئه لتنبه المخاطب، ثم تستفهم بعد ذلك وذلك قولك: زيد كم مرة رأيته، وعبد الله هل لقيته)) [٥٣] . فيجعل الابتداء بالاسم المسؤول عنه علة لتنبيه المخاطب إلى العناية والاهتمام بالمتقدم .

الخاتمة

يتضح مما تقدم أن سيبويه قد أولى حال المخاطب اهتماما واضحا يبدو من اعتماده على الأحوال المختلفة التي يكون فيها في بيان معنى التركيب وشكله وطريقة صوغه منطلقا من أسس تداولية من شأنها إنجاح العملية التواصلية بين طرفي الخطاب ، إذ جعل الحوار مع المخاطب يحمل بين طياته بعدا لغويا تداوليا حين وقف فيه على الأحكام الخاصة بالقوانين اللغوية ، ثم ربط بين المتكلم والمخاطب والظروف اللغوية المحيطة بدواعي القول فمثل لنا الجانب التداولي القائم على مبدأ التعاون .

فنظرة سيبويه للمخاطب كانت قائمة على انه العنصر السياقي الرئيس الذي يخول المتكلم استعمال أساليب مختلفة في التعبير ويتيح له ممارسة أعراف لغوية متعددة ، منطلقا من عمق تأمله في حاله الذي كان يتراءى له في أوضاعه المختلفة.

ولما كان المخاطب شريكا للمتكلم في العملية التواصلية فانه شريك له في وضع القاعدة النحوية ، فينطلق سيبويه في بناء تلك القواعد، وتحليلها ، وبيان ما يجوز منها وما لا يجوز ، وما هو حسن وما هو غير حسن ...الخ اعتمادا على تقبل المخاطب لها واستحسانها . منبهاً إياه بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى أفضلها تركيبا ودلالة حسب الواقع الاستعمالي ، مع تأكيده على متلازمات القول التي يفرضها العرف اللغوي من خلال مراعاته لما ينتظره المخاطب من أحداث يترقب وقوعها. ونجده من نظرته إلى المخاطَب بوصفه أحد اركان العملية التواصلية يمنع بعض التراكيب ، لما فيها من لبس محتمل وإيهام للمخاطب بخلاف المقصود ، مما يقف عائقا في نجاح عملية التواصل التي تهدف إليها اللغة .

الهوامش

[1] – ينظر:الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي :٢٣، وسياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة :٧٠.

[2] – الصناعتين :ابو هلال العسكري:١٠.

[3] – البيان والتبيين :٨٧/١.

[4] – ينظر : الاتجاه التداولي و الوظيفي في الدرس اللغوي :٨١.

[5] – ينظر:سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة :٧٣

[6] – ينظر:مراعاة المخاطب في النحو العربي:١١٥.

[7] – ينظر:في النحو العربي ، نقد وتوجيه ٢٢٥.

[8] – ينظر:. :سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة :٧٨.

[9] – ينظر: المصدر نفسه :٧٨– ٧٩.

١٠ – السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة: ص ٥٦ .٥٧.

[11] – ينظر:سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة :٧٩–٨٢.

[12] – ينظر: التداولية عند العلماء العرب :٣٠–٣١.

[13] – ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٢–٣٣–٣٤ ،و الاتجاه التداولي و الوظيفي في الدرس اللغوي:٨١.

[14] – الكتاب:٤٧/١.

[15] – ينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية:١١٤٨.

[16] – البيت لعمر بن شأس الجاهلي، ينظر: خزانة الأدب :٨/ ٥٢٣.

[17] – ينظر:سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة :٨٠.

[18] – الكتاب :٢٥٣/١

[19] – ينظر: الدلالة والتقعيد النحوي دراسة في فكر سيبويه :٤١٨.

[20] – ينظر: ديوان قيس بن الخطيم، ٨١.

[21] – الكتاب:٧٣/١–٧٤.

[22] – ينظر :التفكير اللساني في الحضارة العربية:٣٣٢.

[23] – البعد التداولي عند سيبويه ، ٢٦١.

[24] – البقرة:١٣٥.

[25] – الكتاب:٥٧/١.

[26] – ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٤، والتداولية عند علماء العرب:٣٤،و الاتجاه التداولي الوظيفي في الدرس اللغوي:٨١.

[27] – البعد التداولي عند سيبويه: ٢٥٥.

[28] – الاتجاه التداولي الوظيفي في الدرس اللغوي :٨٥.

[29] – الكتاب :٤٨/١.

[30] – التداولية عند العلماء العرب:٥١.

٣١ ـ أسرار البلاغة:٢٦/١.

٣٢ - الكتاب: ٥٤/١.

٣٣ – المصدر نفسه:١/٢٥.

٣٤ – التداولية عند العلماء العرب:٥٢.

٣٥ – الكتاب:١/٤٨.

[٣٦] – ينظر: سياق الحال في كتاب سيبويه :٨٣.

[٣٧] – ينظر: مراعاة المخاطب في النحو العربي :١١٠. وسياق الحال في كتاب سيبويه :٨٣.

[٣٨] – الكتاب :١/٢٥٥.

[٣٩] – ينظر: افاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٤، والتداولية عند علماء العرب:٣٣،و الاتجاه التداولي الوظيفي في الدرس اللغوي:٨١.

[٤٠] – ينظر: الاتجاه التداولي الوظيفي في الدرس اللغوي:٨١.

[٤١] – الكتاب:١/٢٣.

[٤٢] – سياق الحال في كتاب سيبويه :٨٢.

٤٣ – ينظر: المقتضب:٤/١٢٦.

٤٤ – الكتاب :٢/٣٨٩.

٤٥ – المصدر نفسه :١/٤٧– ٤٨.

٤٦ – المصدر نفسه:١/٤٢.

٤٧ – المصدر نفسه:٣/٩–١٠.

٤٨ – ينظر: المفهوم التكويني للعامل عند سيبويه :٧ .

[٤٩] – ينظر: الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النّحوي عند سيبويه :٩٦.

[٥٠] – ينظر: ينظر كتاب سيبويه مادته ومنهجه :٢٣٨.

[٥١] – الكتاب:١/٤٥.

٥٢ – المصدر نفسه:١/٣٤.

٥٣ – المصدر نفسه:١/١٢٧.

مصادر البحث ومراجعه

١. افاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،د.محمود احمد نحلة ، دار المعرفة الجامعية ،٢٠٠٢م .
٢. الاتجاه التداولي و الوظيفي في الدرس اللغوي ،د. نادية رمضان النجار،مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع ، الاسكندرية،٢٠١٣م.
٣. الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النّحوي عند سيبويه ،إدريس مقبول، عالم الكتب الحديثة ،ط١ ، عمان ، ٢٠٠٦ م .
٤. أسرار البلاغة ، عبدا لقاهر الجرجاني ، موقع الوراق،(http://www.alwarraq.com) ،الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع.
٥. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية ،تأسيس "نحو النص"،محمد الشاويش ،المؤسسة العربية للتوزيع ، تونس،ط١، ٢٠٠٢م.
٦. البعد التداولي عند سيبويه (بحث) ،مقبول إدريس ،مجلة عالم الفكر،عدد١ ،المجلد٣٣، الكويت ، ٢٠٠٤م .
٧. البيان والتبيين ،للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة،ط٤، القاهرة، ١٩٧٥م.
٨. التداولية عند العلماء العرب ،دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د.مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر ،بيروت – لبنان،ط١ ،٢٠٠٥م.
٩. التفكير اللساني في الحضارة العربية ،د.عبد السلام المسدي،الدار العربية للكتاب ، ط٢، ١٩٨٦م.
١٠. خزانة الأدب ولب لباب العرب ، عبد القادر عمر البغدادي . قدمه ووضع حواشيه :د. محمد نبيل طريفي ،إشراف د.إميل بديع يعقوب ،بيوت ،لبنان ،١٩٧١.
١١. الدلالة والتقعيد النحوي دراسة في فكر سيبويه ،د. محمد سالم صالح ،دار غريب للطباعة ،ط١، ٢٠٠٦م .
١٢. ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق : د. ابراهيم السامرائي و محمد مطلوب ،مطبعة العاني ، بغداد،١٩٦٢
١٣. سياق الحال في كتاب سيبويه "دراسة في النحو والدلالة،د.اسعد خلف العوادي،دار الحامد للنشر والتوزيع،عمان ،الأردن،٢٠١٠م.
١٤. السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ،على آيت أوشان ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط١.١٤٢١هـ /٢٠٠٠م .
١٥. الصناعتين ، أبو هلال العسكري،تحقيق:محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه،ط٢، ١٩٧١م.
١٦. في النحو العربي نقد وتوجيه ، د.مهدي المخزومي ،دار الرائد العربي، ط٢، بيروت ، لبنان،١٩٧٦م.

١٧. كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت .
١٨. كتاب سيبويه : مادته ومنهجه وآثاره في العلوم العربية والإسلامية ومكانته في علم اللغة الحديث ،محمد حسن عبد العزيز، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠١٢م .
١٩. مراعاة المخاطب في النحو العربي،د. بان الخفاجي، دار الكتب العلمية ،بيروت ، ط١، ٢٠٠٨م.
٢٠. المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه "دراسة وتحليل" ،د.غالب فاضل المطلبي ، حسن عبد الغني الاسدي (بحث) ، مجلة المورد، العدد الثالث، المجلد السابع والعشرون، جمهورية العراق، ١٩٩٩م.
٢١. المقتضب ،أبو عباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،لجنة إحياء التراث العربي ، القاهرة، ط٣ ،١٩٩٤م .